

سيبويه المصري^(١)

للاستاذ احمد أمين

شخصية غربية كانت في مصر في عهد الدولة الاخشيدية قبل بناء القاهرة ، وكان يدعى اسمها في الفسطاط والقطائع وما بينهما قبيل محبي الفاطميين، كانت شخصية تهرب وتحب، ويضحك منها، ويعتبر بها، ان شئت علما فعالم، أو شعراً فشاعر، أو أدباً فأديب، أو وعظاً فواعظ، أو فكاهة ففكاه، أو نقداً مقنعاً فناقداً، أو جنوناً فجنون

ولد بمصر سنة ٢٨٤هـ وعاش أربعاً وسبعين سنة وأتقن النحو حتى لقب بسيبويه

الطيف مافيه لوثه (لحسة) كانت بعقله، هي سر عظمته فقد جرأ على ما لم يجرؤ عليه أحد في عصره، كان معتزلاً يقيم في المسجد وفي الشارع فيصرح بآرائه في الاعتزال، ويصيح بأن القرآن مخلوق فيقولون مجنون، ويتركونه يقول ماشاء حيث لا يقول أحد شيئاً من ذلك الا همساً أو من وراء حجاب، ويتعرض للناس بالقول اللاذع سواء في ذلك كافور الاخشيد أو وزيره، أو العلماء أو التجار، فيتضاخكون منه ويتقون لسانه بيره والاهداء اليه، سرّاً وجهرّاً

كانت نواته كثيرة، تتلقفها الألسن، ويتناقلها الرواة، فتشيع في الناس وتكون نسلوتهم ومثار ضحكهم وقديماً عرف المصريون بالفكاهة الحلوة والنادرة اللطيفة

(١) لفت نظر الناس الاستاذ عنان الى كتاب في دار الكتب لابن زولاق عن سيبويه المصري بخط مؤلفه، وللكتاب قيمة كبيرة، فابن زولاق مؤرخ مصري دقيق، قد عاصر سيبويه، وكتب عن مشاهدته وعيان سيبويه شخصية تستحق التدقيق فيها والكتابة عنها كما سترى

فانار كلام الاستاذ عنان الاديبن محمد ابراهيم سعد وحسين الديب وجلها على نقله وطبعه، فقاما بذلك. ولقيا في نشره عنا شديداً لقد تم النسخة الخطية ورداية خطها وعدم اعجام الكثير من كلماتها فاستحقا بعملهما الثناء لولا ما وقعا فيه من أخطاء كان يمكن تجنبها واكثرها بطول الصبر وكثرة المراجعة

كما عرفوا بالاعجاب بها والجد في طلبها والامعان في الضحك منها

من أجل هذا ألف ابن زولاق المصري كتابه اللطيف في نواتر سيبويه، لم يذكر فيه الا قليلاً عن علمه ولم يذكر شيئاً عن نحوه ولا عن جده، وانما ملأه كله بفكاهته ولوثته هذا ابن زولاق هذا حذو مؤلفي العراق في تدوين حوادث ظرفاء الممرورين. وابن زولاق نفسه يقول «لو كان سيبويه بالعراق لجمع كلامه، ونقلت ألفاظه، ولو عرف المصريون قدره لجمعوا عنه أكثر مما حفظوه»

عرف منذ شب بهذه اللوثة، تظهر في حركاته ورمش عينه، وزادت برديه في بئر أمام بيته، وتهيج أحياناً فيطرح ثيابه ويمشي عريان في الطريق، على عورته خرقه، وعلى أكتافه خرقه، ويده عصا ومصحف ويروح الى الجامع وهو على هذا الشكل يعطو ويتزهد، وأحياناً تهدأ ثائرته فينادم الأمراء والوزراء ويعجبون بلطفه وطره، وتقول زوجته انه انما كان يهيج اذا لم يأكل اللحم والدسم فاذا أكلهما هدأ

قلت ان لوثته سر عظمته، فاذا هو هدأ سكنت ولكنه اذا هاج أتى بالنواتر الطريفة والكلم السيار، ولذلك قالوا فيه انه «اذا لم يكن له من يهيجه لم يخرج عليه» سب مرة خازن الاخشيد أو وزير ماليته فاخذه وعذبه ثم أطلقه وأجرى عليه الرزق فكان الصبيان أحياناً اذا رأوه يتصايحون «يا خازن اخرج عليه» فيهيج مابه وينطق بالقول اللطيف

كان يقول القول على سجيته لا يهرب أحداً، قد أدخل مرة مستشفى المجاذيب ثم أخرجه كافور الاخشيد، فلما مثل بين يديه قال له سيبويه «ما مثلك يصطنع بعشرين ألف دينار ولا ثلاثين ألفاً اذا كنت عادلاً، فاما اذا كنت جائراً فأسود بعشرة دنائير يقوم مقامك»

وكان أكثر قوله سجعاً، ومن ثم كان أكثر دورانا على الألسنة وأسهل حفظاً

لحق المحتسب وبين يديه أجراسه فقال «ما هذه الأجراس يا أنجاس، والله ما ثم حق أقسموه، ولا سراً أصلحتموه،

ولا جان دبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه ، وما هي إلا
أجراس تسمع ، لباطل يوضع ، واقفاء تصفع ، وبراطيل
تقطع ، لا حفظ الله من جعلك محتسباً ، ولا رحم لك ولا
له أما ولا أبا »

وكان مخشى اللسان يهرب الوجهاء والاعيان اذا سمعوا
صوته من بعيد ، حتى لا يقذفهم بقذيفة من لدعاته تسير في
الناس ، وكان كافور يعجب كيف يسكت المصريون على سبه
ويقول : سبحان من سلط سيويوه عليكم ينتقم منكم وما
تقدرون على الانتصار »

وما السبب في هذا الا أنه كان يعتمد الى الرؤساء فيصّب
عليهم كلماته القارسة تصيب منهم مقتلاً ، ويسر الشعب من
هذا لأنه يعبر عما في نفوسهم ، وينتقم من خصومهم ويجرؤ
بجنونه على ما لم يجرؤ عليه عقلاؤهم ، وكان يستطيع بلسانه
أن يصل الى ما يتخرج من ذكره المتدينون — لقد كان يوما
يؤاكل ابن المادرائي الوزير ، وعنده هارون العباسي
فقدمت هريسة فقال هرون : أكثر منها يا سيويوه فانها
تذهب بالوسواس من رأسك ، فكف سيويوه عن الطعام
وأخذ يفكر ، فقالوا فيم تفكر؟ قال أفكر في امتناع ابليس من
السجود لآدم ، والآن ظهر عذره — علم ابليس أن هذا في
صلب آدم فلم يسجد له ، ولو عرض على كلاب اليهود أن تسجد
لنسمة هذا في ظهرها ما فعلت
ونحو هذا من انواع الهجاء القاسي

وهو مع هذا أديب ظريف له نظرات في الادب جميلة
يقول : ان أفضل الكلام ما اعتدلت مبانیه ، وعذبت معانيه ،
واستسلس على ألسن ناطقيه ، ولم يستأذن على آذان سامعيه
وقد هجا بعض الناس شيخا من شيوخه فقال سيويوه
ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه صبي بحجر
وسمع بيت المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من صداقته بد

فقال هذا كلام فاسد ، لان الصداقة ضد العداوة ولو قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من مداراته بد

لكان أحسن وأجود

وبلغ المتنبي هذا النقد فذهب الى سيويوه وسمعه منه

فتبسم وانصرف ، فصاح سيويوه — انبكم ! —

ومع هذا فلما سمع قول المتنبي :

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى

رضوى على أيدي الأنام تسير الخ

صاح سيويوه لبيك لبيك ! أنا عبد هذه الايات

مما يذل على ذوق حسن ونقد صحيح وتقدير للادب

ولقد كان على النفس ، دقيق الحس ، يرى الناس كلهم دونه ،

فلا يذل لعظيم ، ولا يهين لكبير ، طلبه أنوجور بن الأخشيد

أمير مصر ليناديه ، فقال على شرط أن أنزل حيث تنزل ، وأركب

حيث تركب ، وأجلس متكئا ، فاجابه الى شرطه

وكان سيويوه يحدث عظيماء خدام يسر حديثا الى هذا

الجلس فسمع له وقطع الاستماع لسيويوه. فقام سيويوه مغضبا ،

فسأله الى أين؟ قال لا تجالس من لا يرى مجالستك رفعة ، ولا

تحدثن من لا يرى حديثك متعة ، ولا تسألن من لا تأمن منعه ،

ولا تأمرن من لا تأمن طوعه

ولما ماتت أم سيويوه حضر في جنازتها كل كبير في مصر

الا ابن المادرائي الوزير ، وعاد والناس حوله ، فاخذ سيويوه

يطلق لسانه في هجاء ابن المادرائي ، وما نجاه من لسانه الا أن لقيه

في الطريق يأتي مسرعا ليدرك الجنائزة

على الجملة كان سيويوه طرفة مصر في عصره ، علما وأدبا

وفكاهة وجنونا — كان يقوم فيهم مقام العالم والواعظ

والأديب ، ومقام الجريدة السيارة الناقدة للاذعة ، وكان منظره

بديعا ، يدور في الاسواق على حماره أو حمار غيره ، وما أكثر

من كان يتقى لسانه بتقديم حماره !

فبحق قال « جوهر الصقلي » لما دخل مصر وذكرت له

اخباره « لو أدركته لأهديته الى مولانا المعز في جملة الهدية »

وبحق لما سمع به « فاتك » ممدوح المتنبي قال : ذكروني به

فلعلني أستدعيه فانه نزهة .